

بائع الأبواب المستعملة

حمادة حامد محمود نور الدين

الباب الذي اشترته نادية من عند بائع الأبواب المستعملة كان ما يزال يتنفّس.

لم تلاحظ ذلك في البداية. كانت مهندسة ديكور، والمهندسون لا يرون الأبواب بل يقيسونها: متران وعشرة في خمسة وثمانين سنتيمترًا، خشب زان أحمر، قلب مصمت لا تلبيس، نحاس مطروق يدوي، سماكة تحتمل دبّابة. سعره كان فضيحة، قالت لنفسها، ثمانية آلاف جنيه لباب كهذا، في زمن بيع فيه الناس مفاتيح بيوتهم قبل البيوت نفسها.

البائع كان رجلًا ضئيلًا بعينين واسعتين لا ترمشان كثيرًا، اسمه عوّاد، ودكانه في آخر زقاق السروجية لا يتسع لأكثر من ثلاثة أبواب واقفة كالمعروضين في سجن. سألها سؤالًا غريبًا وهو يلفّ لها القفل: «هتركّبيه على أوضة نوم ولا مدخل؟» قالت: «مدخل شقة على الطراز القديم، لعميلة في الزمالك.» هزّ رأسه، وقال الجملة الوحيدة التي ندمت لاحقًا أنها لم تفهمها في وقتها: «المداخل عندها ذاكرة يا هانم. الأبواب الداخلية بتنسى، دي اللي بتوّرث.»

رُكّب الباب في ثلاث ساعات. صنفرته نادية بنفسها قبل التركيب بيومين، وأصلحت شرخًا صغيرًا في الدرفة الشمال، ولمعّت النحاس حتى أصبحت ترى فيه وجهها مشوّهًا كما في مرايا الموالد. كانت تعرف أبوابًا كثيرة في سنوات شغلها العشر، لكنها لم تقابل بابًا يتصرّف كأنه يعرفها: عتبه العالي قليلًا، كعتبة بيوت زمان التي كانت تصنعها النجّارة ليتعثّر بها «العفاريت»، ومسماره الثالث المائل قليلًا إلى الداخل، وحلقة نحاسه التي تصرّ صريرًا قصيرًا قبل أن تستسلم. لم تقل لأحد إنها وهي تصنفره ضبطت نفسها تعامله برفق استثنائي، كأنها تغسل رأس عجوز.

رُكّب الباب. العميلة أُعجبت، ودفعت، وصوّرته لحسابها. وفي الليلة نفسها، الثانية صباحًا، اتصلت بنادية وهي تبكي: «جيّي خدي بابكم ده. في حد بيخبط عليه من جوّه.»

ذهبت نادية صباح اليوم التالي تدافع عن بضاعتها، لا عن عقل العميلة. في الطريق اتصلت بأمها في بيت خالتها، مكالمتهما الأسبوعية المقتضبة التي لا تتجاوز ثلاث دقائق: الأكل، والضغط، ودواء القلب. سألتها فجأة، بلا مقدمات: «ماما، باب شقتنا القديمة

كان لونه إيه؟» صمتت أمها طويلًا، ثم قالت بحذر المريض الذي يشمّ رائحة تشخيص جديد: «ليه بتسألي؟» قالت: «شغل.» قالت أمها: «أخضر. لا. أخضر مائل للرمادي، بويات أبوكي سنة ٩٨.» ولم تسألها نادية سؤالًا آخر. وقفت في الشقة الفاخرة، وأمامها الباب الجميل، وطرقت عليه بظهر أصابعها. كان الصوت أجوف. غريب؛ الباب قلبه مصمت. فتحته، وراءه الصالة. أغلقته، رنّ النحاس كعادته. قررت أن العميلة أرّاقة تعيش وحدها وتشاهد أفلام الرعب، وعرضت استرداد نصف المبلغ مجاملة، وأخذت الباب إلى ورشتها في شبرا مصر بنيّة إعادة بيعه لمن لا يسمع.

في الورشة، في الليلة الأولى، سمعت الطرق بنفسها.

أربع طرقات. متساوية. صبورة. ليست طرقات من يستنجد، بل طرقات من يعرف أنك في الداخل ولا يحب المفاجآت. نادية، المرأة التي صمّمت أربعين شقة وتعرف الفرق بين تمدّد الخشب وصوت الصدمات، وقفت وراء الباب ويدها على المقبض ولم تفتح. قالت لنفسها إن السلم الخارجي للورشة خشبي، وإن الجيران سكارى،

وإن القاهرة كلها أصوات لا صاحب لها بعد منتصف الليل. وفي الصباح أغلقت الورشة وذهبت إلى عوّاد.

«بعتّ لي باب مسكون يا حاج.»

«قلت لك المداخل عندها ذاكرة.»

«ذاكرة مين؟»

عوّاد أشعل سيجارة، وأطال النظر إليها كمن يزن صمتها لا سؤالها، ثم قال: «الباب ده جالي مع حاجات عمارة اتهدّت في شارع ترعة الجنزوري. اشتريت من الهدّام بابين وشباكين وسلّم نحاس. التاني بعته لقهوة في روض الفرج، بقاله سنة، محدش سمع منه حاجة. بس الباب اللي عندك ده كان في الدور التالت، آخر السلم الشمالي.»

تجمّد الدم في يديها. شارع ترعة الجنزوري. العمارة التي هُدّت قبل تسع سنوات. البيت الذي كبِرت فيه قبل أن يموت أبوها، وتبيع أمها الأثاث قطعة قطعة، وتنتقلا إلى حجرة في بيت خالتها. الدور الثالث، آخر السلم الشمالي: شقّتهم. باب بيتها هي.

«كنت عايز تتخلّص منه من زمان،» قال عوّاد وهو يبتسم بلا أسنان تقريبًا، «والأبواب اللي زي دي بتختار زباينها.»

لم تصدّق كلمة واحدة. صدّقت فقط أنه بائع ماهر يعرف كيف يرفع سعر بضاعته بالحكايات، وربما سأل عنها في الحي قبل أن تشتري. لكنها في تلك الليلة لم تعد إلى شقتها في عين شمس. نامت في الورشة على أريكة التنجيد، والباب على بعد مترين منها، مسندًا إلى حائط السور، لا تستطيع أن تقرر إن كانت تخافه أم تخاف عليه.

وفي الثانية صباحًا جاءت الطرقات الأربع.

استمعت إليها هذه المرة كاملة، ممدودة على الأريكة لا تتحرك، تحسب الثواني بين طرقة وطرقة كما تحسب النبض. أربع ثوانٍ بين كل طرقة وأختها. ثم صمت دقيقة كاملة. ثم طرقة خامسة واحدة، أخفّ، أقرب إلى السؤال منها إلى الطلب. وحين فهمت أنها إن لم تنهض الآن فلن تنهض أبدًا، نهضت كأنها في حلم. وضعت يدها على النحاس البارد. وحين فتحت الباب لم تجد ورشة شبرا مصر.

وجدت سلّم العمارة القديم: درابزينه الحديد المطلي بالأخضر، ولمبة السلّم الصفراء التي كانت تومض، ورائحة كشري أم عبده تصعد من الدور الأول. وفي أسفل السلم، عند المدخل، جلس طفل في السادسة يلعب بكورة زجاج، رفع رأسه إليها وقال بغير مفاجأة: «اتأخرتي النهارده. بابا قال يستنّاكي على العشا.»

كان هو. محمود. أخوها الذي غرق في الترعة وهو في السادسة، قبل الهدم بعشرين سنة، والذي لا تملك له صورة واحدة؛ لأن أمها أحرقت الصور كلها في ليلة واحدة من ليالي حزنها الأسود، وقالت يومها جملتها الشهيرة التي حكاها الحي كلّه: «أنا مش هفتكر، أنا هنسى بالعافية.»

لم تصرخ نادية. لم تبكِ. وقفت على عتبة باب بيتها وسمعت في الداخل سعال أبيها المزمن، وصوت أمها شابة تناديها لتعصر الليمون، وشعرت بشيء في صدرها يفكّ غُرزته غرزة غرزة، كأن عشرين سنة من البيوت المؤقتة وشهادات الديكور وعلب المهدئات كانت كلها وقوفًا في محطة لا يدخلها القطار.

وعرفت، وهي واقفة هناك، أن بإمكانها أن تدخل. عتبة واحدة وتنتهي المسافة. وعرفت في اللحظة نفسها، بيقين لا يشبه شيئًا عرفته من قبل، أن من يدخل هذا الباب لا يعود إلى الوراء أبدًا. ليس لأن خلفه موتًا، بل لأن خلفه بيتًا كاملًا لا أحد فيه يكبر، ولا أحد فيه يرحل، ولا غروب فيه ولا فجر؛ بيتًا تقف فيه الساعة على أجمل دقيقة وتدور فيها إلى الأبد.

وضعت جبينها على خشب الباب، وقالت بصوت لم تسمعه هي نفسها منذ عشرين سنة: «حسابي معاكم بكرة. وعد.»

ثم أغلقت الباب.

في الصباح لم تبعه. حمّلته على عربة نصف نقل، وذهبت به إلى الأرض الفضاء حيث كانت العمارة، وقد صارت منذ الهدم جراجًا عشوائيًا للعربيات. ركّبت الباب على قاعدتين من الطوب في وسط الفراغ، بلا حائط يمين ولا حائط يسار، بابًا يقف وحده كما يقف البحر في منتصف الخريطة. وعلّقت على مقبضه لافتة صغيرة كتبتها بيدها: «مفتوح لأهله.»

وأهل المنطقة يحكون إلى اليوم عن باب يقف وحده في جراج ترعة الجنزوري، وعن حارس ليلي سمع ذات مرة أربع طرقات متساوية صبورة، ففتح عينيه ولم يتحرك، لأنه عرف أن الطارق لا يطرق له.

وبعد أسابيع، في مكالمتها الأسبوعية، قالت لها أمها فجأة، في منتصف كلام عن الضغط والدواء: «حلمت بمحمود. قاعد على السلم بيلعب بالكورة الزجاج. وسألني عنكي، قالي: نادية ليه مبقتش تيجي؟» صمتت نادية، ثم قالت: «قوليله بقى إني شغالة في مشروع كبير، وإني هعدّ عليه كل سنة، مرة واحدة بس.» لم تسألها أمها كيف عرفت بالكورة الزجاج. بعض الأمهات يتعلمن ألا يسألن، خوفًا لا فضولًا، لأن الإجابات في بيوتنا أثقل من الأبواب.

أما نادية فصارت تزور المكان مرة كل سنة، في ذكرى الهدم لا في ذكرى الغرق. تقف أمام الباب، تطرق أربع طرقات، تنتظر دقيقة، ثم تعود إلى سيارتها وتكمل حياتها التي اختارتها بيديها، في الزمن الذي يمشي إلى الأمام ولا يرجع. الزمن الذي تُهدّ فيه البيوت ويُدفَن

فيه الناس، وحيث الذاكرة، كما علّمها بائع الأبواب المستعملة، ليست مكانًا نعود إليه، بل بابًا نتعلم أخيرًا كيف نغلقه برفق.

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app